

الفصل الحادي والعشرون

فارس كنانة (٤)

هذا الخليفة الفاطمي «الحافظ» يموت وله ابنان كبيران، يعدل عنهما، ويعهد بالخلافة لأصغر أولاده سنًا، وهو في السابعة عشرة من عمره، ويُوصي بالوزارة لأمير مغربي اسمه ابن مَصَال، ويلقب الخليفة الجديد الصغير بالظافر.

وهذا الظافر فتى رُبِّي تربية ناعمة، لا يعرف غير اللهو واللعب، والسكنى إلى الجواري وسماع الأغاني، فأما تدبير الأمور فللوزير ابن مصال.

والخليفة يُحب ابن مصال، ويُحب بقاءه، وولاة الأقاليم كلهم طامع في الوزارة، فيأبى ابن السلار الكردي الأصل ووالي الإسكندرية والبحيرة، فيجمع جنده وسلاحه، ويهجم على القاهرة، ويقتل ابن مصال، ويتربع في دست الوزارة، والخليفة مضطر إلى إقراره وهو له كاره.

وفي جند ابن السلار ابن زوجته عباس، رجل مغربي عربي الأصل من تميم، وله ولد جميل اسمه نصر، من خلان الخليفة الظافر وندمائه، فيوعز الخليفة إلى نصر وعباس بقتل ابن السلار ليكون عباس في الوزارة مكانه، ويتم ذلك ويقتل ابن السلار ويستوزر عباس، ثم بعد مدة يسأم الخليفة وزيره الجديد عباسًا، فيوعز إلى ابنه نصر أن يقتل أباه ليحل محله، ويتردد نصر ثم يُطلع أباه على ذلك، فيتأمران على قتل الخليفة فيقتله نصر، ويدخل عباس القصر، فيتهم أخوي الخليفة بقتله، ويقتلهما ويولي طفلًا صغيرًا هو ابن الظافر ويلقبه بالفائز، وسنه خمس سنين، وتهيج مصر على عباس وابنه، ويكاتب نساء القصر طلائع ابن رُزيك الأرمني الأصل ووالي المنية، ليحضر فينتقم من قاتلي الخليفة، فيحضر وينتصر، ويهرب عباس وابنه إلى الشام، فيُقتل عباس في الطريق، ويُقبض على ابنه نصر، فيُرسل إلى القصر، فيُمتل به ويُعلَّق على باب زويلة.

هذه صورة سينمائية للأحداث التي حدثت في مصر أثناء إقامة «أسامة» بها، ما موقفه؟ كيف تصرف؟ كيف يستخدم فروسيته والفروسية لا تعرف العمل في الخفاء؟ الحق أنه موقف مربك للرجل الصريح.

لقد أصبح «أسامة» وله جنود ومماليك وأعوان، يجلس في مجلس الأمراء للتشاور فيما يعمل، ويقربه الولاة إليهم، ويتمناه كلُّ في صفه لنجدته وغنائه.

لقد كان من أنصار القصر يوم كان الحافظ يتولى الخلافة؛ لأنه رب نعمته، ولأنه رجل؛ ولكنه انحرف عن القصر لما رأى من لهو الظافر ولعبه وتهتكه، وناصر ابن السلار، يُحارب في صفه ويُقاتل بجانبه، فكرهه القصر؛ لأنه يُناصر عدوه؛ وكان ابن السلار رجلاً مقدماً شجاعاً يُحب رجال العلم، ولكنه قاسٍ لا يرحم، يُعاقب أكبر عقوبة على أصغر جريمة، فأحبه أسامة لشجاعته، وأغضى عن قسوته، وأمن ابن السلار إليه وأنس به، وبعثه بمهمة حربية إلى نور الدين محمود بن زنكي ليتفق معه على تكوين جيش لمحاربة الصليبيين في الشام ليُخفف ضغطهم على مصر، وقام أسامة بمهمته وحارب الصليبيين في عسقلان وبيت جبريل، وظل يُقاتل حتى أحس ابن السلار بخرج مركزه في مصر، فاستدعاه ليكون بجانبه ففعل.

فلما قُتل ابن السلار واستوزر عباس وجدنا أسامة بجانبه وبجانب ابنه نصر يستشيرانه في أدق الأمور حتى فيما أوعز به الخليفة إلى نصر أن يقتل أباه، فينهاه عن ذلك، ويُحذره غضب الله ووخز الضمير؛ ولا بد أن يكونا قد أطلعا على قتل الخليفة، مقابلة للمؤامرة بمؤامرة، ومن هنا اتهمه كثير من المؤرخين باشتراكه في المؤامرة، وليس ذلك ببعيد عليه؛ وعذره أن الخليفة الغر هو البادئ بتحريض الابن على أبيه، فالجزاء من جنس العمل، ولكن عباساً أسرف فقتل الأبرياء من إخوة الظافر، وهو عمل لا يبرره شيء، فكان على أسامة أن ينفذ يده منه ويقطع صداقته، ولكنه لم يفعل.

لقد دخل طلائع بن رزيق مصر وكان لأسامة صديقاً أيضاً، وكان أسامة يُحبه، وعرض عليه طلائع أن يكون بجانبه وله المشاركة في عزه وجاهه، والدنيا مقبلة عليه؛ ولكن عباساً في أشد أوقاته حرجاً يلجأ إليه ويطلب منه أن يصحبه في الخروج من مصر حتى لا يغتاله مغتال؛ ويحار أسامة بين صديق تُقبل عليه الدنيا وصديق تُدبر عنه، والذي تُقبل عليه لم يُلوث يده بالقتل، وإنما ينصر المظلوم، والذي تُدبر عنه قد سفك الدماء البريئة، ولكنه في شدة وقد استنجد ليحفظ حياته؛ وأخيراً بعد تردد طويل وشقاء ضمير اعتذر لطلائع الفائز وخرج من مصر مع عباس البائس.

عشر سنين في مصر هي أسوأ حياته، لقد خُلِق لقتال الصليبيين فقضاها في مصر في قتال بعض المصريين لبعض المصريين، وخُلِق للعيشة القاسية، فعاش في مصر عيشة ناعمة، وخُلِق للصرحة فعاش في المؤامرات، وخُلِق لا يأبه للمال فأتاه المال في مصر من حيث لا يحتسب؛ ولكن الله عاقبه على أنه لم يعيش كما خُلِق، فكان خروجه سلسلة كوارث؛ يصحب عباساً في الطريق، ويترك أسرته في حماية طلائع بن رزيك، فيكاتب القصر وبعض أهل مصر الفرنج والعربان أن يكمنوا لعباس ومن معه في الطريق، فيخرجون عليهم، ويُقتل عباس ويؤسر نصر ويُرَد إلى مصر مخفوراً، وينجو أسامة بأعجوبة بعد أن يُصاب في رأسه بضربتين بالسيف يفقد بهما وعيه، وأخيراً جدًّا يصل إلى دمشق في أسوأ حال.

ثم يُصاب في أسرته وماله.

لقد استراح قليلاً واسترد قوته وقد نيف على الستين، ولا يزال جندياً محارباً له قوة الشباب، فالتحق بجيش نور الدين محمود بن زنكي، وبذلك عاد إلى موقفه الطبيعي، وكاتبه طلائع يطلب منه أن يعود إلى مصر، وإذا كان جندياً يُحب القتال في الثغور فقد عرض عليه طلائع أن يُوليه أسوان، ويفتح بجنده الحبشة. وبذلك لا يناله سوء من استباح القصر منه، فاستشار في ذلك نور الدين، فقال له: «أما كفاك ما لقيت من مصر وفتنها؟».

فاعتذر لطلائع وسأله أن يُرسل إليه أسرته بحرًا، ولكن طريق البحر أيضًا في يد الصليبيين، فحل نور الدين الإشكال، بأن يكتب إلى «بلدوين الثالث» ملك أورشليم ليمنحه أماناً لأسرة أسامة، فمنحه الأمان كتابة.

هذه أسرة أسامة في خمسين نسمة بين رجال ونساء، ومعهم أموالهم وجليهم وجواهرهم وذهبهم وفضتهم، وسيوف أسامة وسلاحه، وقيمتها كلها ثلاثون ألف دينار، ومعهم أيضًا مكتبة أسامة التي اقتناها من خير مخطوطات مصر، وفيها أربعة آلاف مجلد، كل ذلك ينزل في مركب في دمياط ومعهم أمان بلدوين، حتى إذا وصلوا إلى عكا أرسل «بلدوين» رجال بالفنوس يكسرون المركب ويأخذون ما فيها، ويحتج بعض رجال أسامة بالأمان، فلا يلتفت إليهم، ويأخذ كل ما معهم، ويترك لهم خمس مئة دينار تُوصلهم إلى بلادهم؛ ويحمد أسامة الله كثيرًا على سلامة أهله وولده، ويحز في نفسه قليلاً ضياع المال وكثيراً ضياع الكتب؛ وبذلك يُختم فصل من الرواية عنوانه «أسامة في مصر».

ها هو في الرابعة والستين وقد عاد فارساً من فرسان المسلمين، يُقاتل في جيش نور الدين؛ والأزمان التي عركته في مصر عركت أهله في حصن شيرز، فقد مات عمه سلطان، وولي الحصن ابن عمه الذي كان يُنافس أسامة.

والسنة سنة ٥٥٢ هجرية، وقد ازين الحصن لحفل ختان ابن الأمير، واجتمع في الدور الفسيحة آل ابن منقذ كلهم، والراقص يرقص والزامر يُزمر والطبال يُطبل، والقوم في هرج ومرج، والسرور بالغ بهم غايته، وإذا بالأرض تزلزل زلزلاً عنيفاً، فيتسابقون إلى باب الدار، فترمح فرس الأمير أولهم فيقع، وينسد الباب وتقع الدار على من فيها ويهلك كل أهل أسامة، ويأتيه الخبر فتنهد قواه ثم يستردها بإيمانه ويقول:

لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم	قلباً أجشمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات أسعدنا	وعاش للهم والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرني	عنهم فيوضح ما قالوه تبياناً
بادوا جميعاً وما شادوا، فواعجباً	للخطب أهلك عماراً وعمرانا
هذي قصورهم أمست قبورهم	كذاك كانوا لها من قبل سكانا

وكذلك خربت أكثر بلاد الشام، فحماة والمعرة وحمص وكفر طاب؛ وأخطر ما في الأمر أن الزلزال هدم أسوار البلاد والقلع، وانكشفت البلاد للصليبيين، فقام نور الدين يُعيد الأسوار ويُقيم القلاع، ووضع يده على حصن شيرز وعمر أسوارها ودورها وأعادها جديدة.

سبعون ... خمس وسبعون ... ثمانون ... هو في حصن كيفا، وقد دب إليه الضعف، وارتعشت منه اليد:

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي	وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي جدُّ مضطرب	كخط مرتعش الكفين مرتعد
فأعجب لضعف يدي عن حملها قلماً	من بعدِ حطم القنا في لبة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت	رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد
فقل لمن يتمنى طول مدته	هذي عواقب طول العمر والمُدَد

* * *

لومُ الردى، كم خضته متعرضاً له وهو عنى مُعرض متجنب
وكم أخذت منى السيوف مأخذ الـ حمام، ولكن القضاء مُغيب
إلى أن تجاوزت الثمانين وانقضت بلهنية العيش الذي فيه يُرغب
فمكروه ما تخشى النفوس من الردى أذ وأحلى من حياتي وأطيب

هذا صلاح الدين بطل المسلمين يأتي بالأعاجيب من فعال البطولة، ويستنزل من الإفرنج الحصن بعد الحصن ... آه ... لو كنت شاباً.

علّمت الأحداث «أسامة» أن يؤمن الإيمان كله بالقدر، وأي شيء يدعو إلى الإيمان بالقدر كالحرب والصيد؟ هذا حي تدل كل المظاهر على أنه سيحيا فيموت، وهذا حي تدل كل الدلائل على أنه يموت فيحيا؛ وهو نفسه يقف مواقف يرى فيها الموت محققاً ثم ينجو، ويستهن بمواقف لا يرى فيها شيئاً من الخطورة فيُصاب.

وكان له حس دقيق بهذه الأمور، فهو يراها ويلتفت لها ويعجب منها، ويحمله ذلك كل على الإيمان بالقدر خيره وشره.

رمى مرة - وهو صبي - عصفوراً بسهم فلم يصب المرمى، ثم ارتد السهم فأصاب عصفوراً آخر كان يطل برأسه من عشه - ولم يكن أسامة رآه - فقتله.

وهو وصاحبه مرة يهزمان ثمانية فرسان، ثم يهزمهما «رؤجل». ورجل يقتل أسداً، ثم تقتله عقرب.

و«ندى القشيري» الفارس يطعنه فارس صليبي فيقطع شرياناً في صدره، ويخرج الرمح من جانبه الآخر، وكل الظن ألا يصل إلى بيته حياً، فيسلم ويصح، وتلتئم جراحه، ويبقى سنة إذا نام على ظهره لا يقدر على الجلوس إلا إذا أسنده اثنان، ثم يزول ما يشكو منه، ويعود مقاتلاً كما كان.

و«عتاب» البطل المغوار، الضخم الجسم، الفخم الصوت، الذي يفعل الأفاعيل بالأعداء ويدور اسمه على كل لسان لشجاعته وفروسيته، يدخل بيته فيجلس على أريكة عليها غطاء، ويعتمد في جلوسه على يده، فتدخل فيها إبرة، فوالله لقد كان يئن أنيناً يسمعه من بالحصن لعظم خلقته وجهارة صوته، ثم يموت، و«ندى» لا يموت.

ومعلم مكتب في قرية يعرض له أمر يحمله على الخروج من المكتب، وبعد مفارقتها بقليل تزلزل الأرض ويقع البناء على الأطفال، فيموتون كلهم وينجو المعلم. وكان «أسامة» يُقاتل الإسماعيلية مرة، حتى إذا انتهى القتال سمع رجلاً يصيح: «الرجال، الرجال»، فبادر هو وصحبه وسألوه عن صياحه، فأشار إلى إصطبل قديم مظلم، وقال: أسمع هنا صوت رجال، فدخلوا فوجدوا رجلين من الإسماعيلية فقتلوهما، ووجدوا إسماعيلياً ورجلاً آخر من رجالهم يتقاتلان، فقتلوا، الإسماعيلي وحملوا صاحبهم إلى المسجد وبه جراحات عظيمة وهو لا يتحرك ولا يتنفس، ويظن كل من رآه أن قد مات، ثم أخذ نفسه يتردد، فحاطوا جراحه في رقبتة وجسمه، ثم عاد إلى صحته كما كان.

وأصبح «أسامة» يوماً وهو واقف قرب الحصن، فرأى ثلاثة شخوص مقبلة، أما اثنان فكالناس، وأما الثالث بينهما فلم يتبينه، حتى إذا قرب رأي رجلًا قد ضربه إفرنجي بسيفه في وسط أنفه، فقطع وجهه إلى أذنيه وقد استرخى نصف وجهه حتى تدلى إلى صدره، وبين النصفين من وجهه قريب من شبر، فدخل البلد وخاط الجراح وجهه وداواه، والتحم الجرح وشفي، وسموه ابن غازي «المشطور» من أجل ذلك. وهو بنفسه عبرة العبر في ذلك، فكم قاتل أسودًا ثم كادت تقتله ضيع، وكم أخطأ التقدير فخرج عليه الكمين وهو يظنه في مأمن، وهو يُقاتل على فرس يظهر بعد أنه من أردأ الأفراس، ولا يظن نفسه تنجو ثم ينجو، ويخرج عليه العرب والفرنج في وادي موسى فيقتلون عباسًا ومن معه ويسلم هو، إلى كثير من أمثال ذلك.

كل هذه المناظر وأمثالها أسلمته إلى الإيمان بالقدر إيمانًا كإيمان العجايز، والإيمان بالقدر سلاح ذو حدين، فأحيانًا يدعو إلى التواكل والخمول وترك الأمور تجري كما تشاء، وعدم الإيمان بالربط بين الأسباب والمسببات، وهذا أقرب وجهيه، وأتلم حديه، وهو الذي تلجأ إليه النفوس إذا ضعفت والقلوب إذا ماتت، وأحيانًا يدعو إلى الشجاعة وركوب الأخطار في غير خوف، والإقدام في غير فزع، فالأعمار مقدره، والإقدام لا يقصرها، والإحجام لا يمدّها؛ وهذا التفسير الأخير هو الذي كان يعتنقه المسلمون في الصدر الأول من حياتهم، والذي كان يعتنقه أبطال المسلمين في كل عصر.

اسمع «أسامة» يقول: «إن ركوب أخطار الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب.»
«ولا يظن ظانُّ أن الموت يُقدمه ركوب الخطر، ولا يُؤخره شدة الحذر، ففي بقائي
أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان،
وقتل الأسد، وضربت بالسيوف، وطُعن بالرماح، وجُرحت بالسهام؛ وأنا من الأجل
في حصن حصين.».

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسرًا إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليّب قط بداره نارًا، وكان خرابها بالنار^١

إن كان «أسامة» في الثمانين لا يصلح لحمل السيف، فيده تستطيع أن تحمل القلم، وإن
كان درس الصيد في صباه علمه الفروسية، فدرس الأدب في صباه وفي فترات راحته
طول عمره علمه التأليف في الأدب، فهو يعكف من قبيل الثمانين إلى ما بعد التسعين
على المطالعة والدرس والتأليف.

يؤلف في الأدب «لباب الآداب» يُقسمه إلى أبواب، ويذكر في كل باب ما ورد فيه من
القرآن، ثم الحديث ثم الآثار نثرًا ونظمًا، منها ما ورد في كتب الأدب الأخرى ومنها ما
لم يرد، ومنها أحداث حدثت له، وأمور حدثت في زمنه^٢، ويؤلف في نقد الشعر، وفي
الشيب والشباب، وفي تاريخ القلاع والحصون، وفي أخبار النساء، وفيمن شهد بدرا من
الفريقين ... إلخ.

ويؤلف كتابًا هامًا أشبه بالمذكرات يكتبها العظماء في أحداثهم، وإن لم تكن مرتبة
ولا مبوبة ويسميه «الاعتبار»^٣.

وهو — فيما وصلنا من تأليفه — واسع الاطلاع، حسن الالتفات، صحيح التقدير،
ظريف الروح، ظريف الاستخدام لما يحيط به من ظروف.

^١ ابن طليّب مصري عُرف بالبخل حتى رُمي بأنه لا يُوقد نارًا في بيته بخلاً منه ثم احترقت داره بالنار.
^٢ نشرت هذا الكتاب مكتبة سركيس بمصر، وعُني بنشره وتحقيقه عناية فائقة الأستاذ الفاضل الشيخ
أحمد محمد شاكر، وقد استفدت منه كثيرًا.

^٣ نشر هذا الكتاب الأستاذ «درنبرغ» بليدن سنة ١٨٨٤ ثم نشره الأستاذ فيليب حتى بمطبعة جامعة
«برنستون» بأمريكا نشرة أصح وأدق وأوفى.

قد صور لنا في كتابه الاعتبار، وقليل في لباب الآداب صورة دقيقة لنظرة المسلمين إلى الصليبيين في عصره، وأوضح لنا كثيراً من قوانين الفروسية عند المسلمين والإفرنج، وهو لا يستحل ذكرهم من غير أن يعقب عليه بخذلهم الله أو لعنهم الله، ومع هذا لا بأس من أن يتخذ من بعضهم أصدقاء، فهو يكره منهم فكرة الصليبية، ويصادق بعضهم لصفاتهم الشخصية.

يعجب لشجاعتهم ويقول: ليس لهم من فضائل الناس سوى الشجاعة، كما يعجب بنظرهم إلى الفروسية وتقدير أهلها «فليس عندهم منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا للفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم». حكى أنه مرة تعدى قوم منهم على قطعان غنم للمسلمين، وكان بينهم وبينهم صلح، فشكا «أسامة» من ذلك للملك فلك الخامس Fulk V ملك أورشليم «فاختار الملك ستة من فرسانهم ليحكموا في هذه القضية، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد، وعادوا إلى مجلسه الملك فقالوا: قد حكمنا بغرامة ما أتلّف من غنمهم، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر أحد — ولو كان من مقدمي الفرنج — أن يغيره ولا ينقضه، فالفارس أمر عظيم عندهم».

وينقد تنكرد Tancred نقداً مرّاً لإخلاله بأمان تعهد به، وبلدوين الثالث لمهاجمته أسرته وسلبها أموالها بعد أن أعطى أماناً كتابياً بالألا يتعرض لهم.

ويقص قصصاً كثيرة من أعمال فرسان من الفرنج وفرسان من المسلمين، كانوا يأتون بالعجائب في حروبهم وبطولتهم وفروسياتهم؛ ويحكي أن فارساً من الفرنج هزم أربعة من فرسان المسلمين فوبخهم أهل الحصن وعابوهم وفضحوهم وازدروهم، «فكان تلك الهزيمة منحتهم قلوباً غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها، فانتخوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب، وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة». إلى كثير من قصص المغامرات التي تستخرج الإعجاب بالفرسان من الجانبين.

وينظر إلى الصليبيين نظرة بدوية عربية، فينقدهم في عدم الغيرة على نساءهم، فيقول: «وليس عندهم شيء من الغيرة، يكون الرجل يمشي هو وامرأته فيلقاه رجل آخر، فيأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث وتركها ومضى». ويروي نوادر أخرى من هذا القبيل.

ويذكر أنهم شديداً العصبية لجنسهم ودينهم، فقد أسرت فتاة جميلة، وأدخلت إلى دار والد أسامة، فأهداها إلى الأمير شهاب الدين صاحب قلعة «جعبر» فأعجبته،

وولدت له ولدًا سماه «بدران» وجعله أبوه ولي عهده، ومات الوالد، وتولى بدران البلد، فغافلت أمه الناس وخرجت إلى «سروج» وهي في يد الفرنج، وتزوجت بأسكاف من بني جنسها؛ فكانت هي زوجة الأسكاف وابنها أمير قلعة «جعبر». ومنهم من يُظهر الإسلام ويُصلي ويصوم، ويتزوج مسلمة، ثم إذا أمكنته الفرصة فر هو وأولاده وتنصروا بعد الإسلام والعبادة.

ويصف فرحهم بأعيادهم، ومرحهم في سباقهم.

ويقارن بين الطب عندهم والطب عند المسلمين، فيقول: إن طب الفرنج منه ما هو سخيّف، فقد رأى فارسًا من فرسانهم طلع له دُمْل في رجله، فأحضر له طبيب مسلم وطبيب منهم، فأما الطبيب المسلم فوصف له ما كاد يشفيه، وأما طبيبهم فقال له: أيهما أحب إليك، أن تعيش برجل واحدة، أو تموت برجلين؟ فقال: بل أحيا برجل، فأحضر فارسًا وفأسًا، وأمره أن يضرب رجله بالفأس ضربة واحدة يقطعها، فضربه فسال مخ الساق، ومات من ساعته، ومنه ما هو خرافي، كما رأيت أصابها الصداع في رأسها فقال طبيبيهم: «إنها امرأة في رأسها شيطان قد عشقها». فأخذ موسى وحلق شعرها، وشق رأسها صليبيًا، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها، ومع هذا فلهم أطباء مهرة حاذقون؛ فقد شاهد ملكًا من ملوكهم رمحه حصان في ساقه فتلفت رجله، وفتحت في أربعة عشر موضعًا وكلما ختم موضع فُتح موضع، ولا تنفع فيه المراهم، فجاء طبيب إفرنجي فأزال تلك المراهم، وجعل يغسلها بالخل الحاذق حتى برئت؛ كما شاهد طبيبًا آخر يُعالج «عقد الخنازير» في مهارة، ولكن أطباء العرب كانوا أمهر؛ ومن أجل هذا كان كثيرًا ما يبعث الفرنج في طلب أطباء من العرب.

وعلى الجملة فلم يعجبه الفرنج من الناحية الأخلاقية والاجتماعية إلا من ناحية شجاعتهم؛ وقد أجمل ملاحظاته في قوله: «وكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين تلبدوا — يعني توطنوا — وعاشرو المسلمين.».

فيا لله للمسلمين! أين كانوا من الفرنج وأين أصبحوا منهم؟ فشد ما يُخطئ من يعد الأمر أمر طبيعة ودم وجنس! إنما الأمر أمر «تربية».

وناحية أخرى يستطيعها «أسامة» في مثل سنه، وهي أن يُعين المسلمين برأيه ويُفيدهم بتجاربه، وهذا لا يقل شأنًا عن شجاعته وكفاحه.

فالرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

ومع هذا فله ابن هو عضد الدولة أبو الفوارس يشترك في الحرب مع صلاح الدين ويحيا أسامة حياته الحربية فيه، فهو قطعة منه وقبس من ناره، وليمد هو بالرأي صلاح الدين، فيُحدثنا بعض المؤرخين أن صلاح الدين استدعى أسامة من حصن كيفا «وأنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملكه ضيعة من أعمال المعرة، وذاكره في الأدب ودارسه، وكان ذا رأي وتجربة، وحنكة مهذبة، فهو يستشير في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، واستخرج رأيه في كشف مهماته وحل مشكلاته».

خمس وثمانون ... تسعون

«لما توقلت ذروة التسعين، وأبلاني مر الأيام والسنين، صرت كجواد العلاف، لا الجواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي في بعض، حتى أنكرت نفسي، وتحسرت على أمسي، وقلت في وصف حالي:

لما بلغت من الحياة إلى مدى	قد كنت أهواه تمنيت الردى
لم يُبق طول العمر مني منةً	ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدى
ضعفت قواي، وخانني الثقتان، من	بصري وسمعي، حين شارفت المدى
فإذا نهضت حسبت أنني حامل	جبلًا وأمشي إن مشيت مقيدا
وأدب في كفي العصا وعهدتها	في الحرب تحمل أسمرا ومهندا
وأبيت في لين المهاد مُسَهِّدا	قلقًا كأنني افترشت الجلمدا
والمرء ينكس في الحياة وبينما	بلغ الكمال وتم عاد كما بدا

في الحادية والتسعين يُؤلف لباب الآداب، ويُؤلف ويُؤلف، ويقول: «ما للعلم غاية يدركها الراغب، ولا نهاية يقف عندها الطالب، هو أكثر من أن يُحصَر وأوسع، من أن يُجمَع، ولولا أن النفس إذا غولبت غَلَبت، وإذا زُجرت لَجَّت وأبت، لكان اشتغال من بلغ من

فارس كنانة (٤)

السنين، إحدى وتسعين، بأعمال البر والثواب، أجدى عليه من الاشتغال بتأليف كتاب، بعدما بالغ الزمان في وعظه، بتأثيره في قواه وسمعه وبصره لا بلفظه، وأنذره تغير حاله، بدنو ارتحاله، فهو مقيم على وفاز، ميت في الحقيقة حي بالمجاز». ... خمس وتسعون — ست وتسعون. عجز عن حمل القلم، كما عجز قبلُ عن حمل السيف.

وفي ليلة من ليالي رمضان سنة ٥٨٤هـ في دمشق، والجو خريف والسكون رهيب، أسلم «أسامة» روحه لخالقه، وهو يدعو لصلاح الدين بتمام النصر، ويسأل الله لنفسه الغفران.